السلطانة شجر الدر

غدا المماليك بعد مقتل تورانشاه أصحاب الكلمة الاولى والاخيرة في شئون البلاد . وقد اختار المماليك

شجر الدر – أرملة أستاذهم الصالح أيوب – لتكون سلطانة على البلاد . وكانت شجر الدر جارية تركية الجنس– وقيل بل ارمنية – اشتراها الملك الصالح ايوب وحظيت عنده ، حتى اعتقها وتزوجها ولذلك فهي من ناحية الاصل والنشأة أقرب الى المماليك، حتى اعتبرها المقريزي أولى سلاطين المماليك في مصر ((وأول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك)).

وكانت أولى المشاكل التي واجهت شجر الدر في سلطنتها هي مشكلة الصليبيين الذين مازالو يحتلون دمياط. لذلك اخذت شجر الدر تسعى لحل هذه المشكلة، فأرسلت الامير حسام الدين محمد لمفاوضة الملك لويس التاسع – أسير المنصورة – وتحت تأثير التهديد تم الاتفاق بين المماليك والفرنسيين ، فوافق الطرف الاول على اطلاق سراح لويس التاسع وجميع أسرى الصليبيين منذ عهد العادل الايوبي وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع الصليبيون نصفها عاجلا والنصف الآخر بعد ذلك. أما الفرنسيون فقد وافقوا على اخلاء دمياط والجلاء عن البلاد، كما تعهد لويس بعدم العودة الى ((سواحل الاسلام مرة أخرى)) . وقد تحدد اجل الصلح بعشر سنوات. ولم يلبث أن تسلم المماليك دمياط في صفر سنة ٦٤٨هـ / ٦ مايو سنة ١٢٥٠م، وأطلقوا سراح الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها ، وبذلك كانت مدة استيلاء الصليبيين في تلك المرة على دمياط أحد عشر شهرا وتسعة ايام ، وهكذا نجحت السلطانة شجر الدر في تخليص البلاد من آثار الخطر الذي تعرضت له في أواخر أيام زوجها الصالح نجم الدين ايوب على ان ذلك كله لم يكف لتدعيم مركز شجر الدر في اعين المعاصرين لها ، اذ لا يخفى علينا ان السلطانة الجديدة كانت قبل كل شيء ،امرأة، والمسلمون لم يعتادوا في تاريخهم الطويل ان يسلموا زمام حكمهم لامرأة. ويبدوان ان شجر الدر نفسها احست بوضعها الغريب، الامر الذي جعلها تسرف في التقرب الى اهل الدولة ومنحتهم الرتب والاقطاعات فضلا عن انها خفضت الضرائب على الرعية لتستميل قلوبهم، وبالجملة فقد ساست الرعية احسن سياسة.

ولا ادل على شعور المعاصرين بالحرج من قيام امرأة في حكمهم من ان السلطانة شجر الدر حرصت على الا تبرز اسمها مكشوفا ، فكانت المراسيم والمناشير تصدر من القلعة وعليها علامتها ((أم خليل))، ونقش اسمها على السكة والنقود في صيغة ((المستعصمية ،الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين)) . أما الخطباء فكانوا يقولون في دعاء يوم الجمعة بالمساجد ((اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع، ملكة المسلمين والدة الملك خليل)) . وبعض الخطباء كان يقول – بعد الدعاء للخليفة العباسي – ((واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح)). وفي جميع الالقاب لا نلمس اسم شجر الدر الامر الذي يعبر عن شعور الاستحياء وحرص المرأة على عدم كشف اسمها مكتفية بان تنتسب الى ولدها او زوجها او مولاها.

وكانت شجر الدر قد انجبت من الصالح ايوب ولدا اسمه خليل توفي في صغره ولكنها تمسكت في سلطنتها بلقب ((أم خليل)) لتتجنب ذكر اسمها في عصر اعتبر اسم المرأة عورة . وربما احست شجر الدر باصلها غير الحر، وبانها لا تنحدر من شجرة البيت الايوبي، وبالتالي فانها دخيلة على الحكم وليس لها حق شرعي فيه. لذلك حرصت السلطانة شجر الدجر على التمسك بلقب (أم خليل الصالحية) لتظهر صلتها القوية بالبيت الايوبي عن طريق ولدها خليل من ناحية وزوجها الصالح ايوب من ناحية اخرى ، وبذلك تضفي على سلطتها هالة من الشرعية تجعل المعاصرين يصرفون النظر عن الحقيقة الكبرى وهي ان مقاليد حكمهم غدت فعلا في يدي امرأة.

ومع ذلك ، فان جميع تلك الحيل لم تفلح في دعم موقف السلطانة الجديدة، فرفض الامير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة والامراء القيمرية في دمشق ان يحلفوا يمين الولاء والطاعة للسلطانة ام خليل، وثارت ثائرة الامراء والملوك الايوبيين في بلاد الشام عندما سمعوا بمقتل تور انشاه وقيام شجر الدر في الحكم لانهم وجدوا في ذلك خروجا للسلطنة من بيتهم. ولم يلبث أن تطور الموقف في بلاد الشلام واصبح من الواضح ان ملوك الايوبيين سيتخذون موقفا حازما هجوميا ضد مصر، بعد ان استولى الملك السعيد حسن الايوبي على غزة وقلعة الصبيبة، وثار الطواشي بدر الدين الصالحي نائب الكرك والشوبك، وملك ممالك المغيث عمر الايوبي على هذين الحصنين، في الوقت الذي سلم الأمراء القيمرية مدينة دمشق الى

صاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز الايوبي. وبذلك خرجت بلاد الشام بأكملها من قبضة شجر الدر، وانقسمت الجبهة الاسلامية في الشرق الادنى مرة اخرى فغدت مصر في قبضة المماليك وبلاد الشام في قبضة الايوبيين.

ولم يشفع لشجر الدر انها حاولت عندئذ ان تتمسح بالخلافة العباسية، فتمسكت بلقب ((المستعصمية)) نسبة الى الخليفة المستعصم العباسي، بل على العكس وجد الخليفة العباسي في بغداد نفسه لا يمكن ان يقر مبدأ قيام امرأة في حكم المسلمين ، فبعث من بغداد كتابا الى مصر عاب فيه على الامراء موقفهم، وقال عبارته المشهورة)) ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجالا)). وهكذا وجدت شجر الدر نفسها في موقف لا تحسد عليه بعد ان احاطت بها مظاهر الكره في الداخل والخارج، وجاء قيامها في الحكم مصحوبا بتمزيق الوحدة بين مصر والشام، وهي الوحدة التي ظلت قائمة في صورة او اخرى منذ ايام نور الدين محمود بعد منتصف القرن الثاني عشر هذا الى ان المعارضين لشجر الدر اتهموها بالتفريط مع الصليبيين وانها المسؤولة عن اطلاق سراح لويس التاسع ملك فرنسا، وهو الذي خرج من مصر ليواصل نشاطه الصليبي في بلاد الشام. وللخروج من ذلك المأزق)) خلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر)) ووافقت على الزواج من الأمير عز الدين ايبك – اتابك العسكر على ان تترك له وظيفة السلطنة. وكان ان تمت هذه الخطوة في ربيع الأول من سنة ٦٤٨هـ / يوليو سنة ١٢٥٠م ، وبذلك انتهى عهد شجر الدر بعد ان ظلت في الحكم ثمانين يوما أثبتت فيها مهارة نادرة وكفاية ممتازة.